

دمشق:

شكيب أرسلان

الشيخ إبراهيم الحوراني

رزئت الآداب العربية بفقد هذا العالم المشهور بسعة معارفه ودقة أبحاثه واعتداله بمبادئه الأدبية فاقتطفت ترجمته هذه من كتابي (مفاوض الدرر في أعيان القرن التاسع عشر) لنتشر في مجلة المقتبس وهناك ما اقتطفته.

١ - أسرته

لا يخفى أن معظم الأسر المسيحية الشرقية المذهب حورانية الأصل من بقايا اليسين الذين قدموا حوران وما إليها حتى العراق في حادث سيل العزم الشهير في التاريخ. وكان منهم الغساسنة الذين نسبوا إلى ماء غسان حيث نزلوا وهو اليوم نبع عري في حوران وكانوا عمال الرومان بعد تنصرهم ثم تفرقوا في أنحاء حوران وغيرها فنشأت منهم قبيلة في إزرع المشهورة بأذرعات ومنها تسلسلت أسر كثيرة بأسماء مختلفة أهمها بنو فرح أو الحاج فرح وأبناء عنهم بنو قنديل الذين تعادوا ثم تصالحوا ثم تعادوا وتفرقوا في أنحاء سورية ولبنان. وكان بنو فرح قد قدم بعضهم في أثناء الفتح العثماني إلى ضواحي حمص مع بعض بني قنديل أنسابهم متصالحين ثم عادت المشاحنة ففرقتهم فترل الفرحيون في تلك الجهات والآخرون هجروها مبتعدين عنهم عداً وكان ممن نزل حمص وحماة من الفرحيين من لقب بالقباب مختلفة مثل بني الحوراني أسرة المترجم الآن وبني أسيسه وبني أبي عريضة وبني نسيم وأنسابهم أما بنو الحوراني فينتسبون إلى جدهم شدود الحوراني ونشأ منهم سليمان جد جد المترجم فبنى قرية في حصن الأكراد باسم معمورة الحوراني ثم خربت

ونزح منها سكانها الذين كانوا كلهم من هذه الأسرة فعرفت إلى اليوم بخربة الحوراني.
وعادوا إلى حمص وحماة وضواحيهما.

فنشأ من في حمص أبو يحيى يعقوب بن سليمان بن فرح وهو جد والد المترجم كان شاعراً
بليغاً وصاحب مكتبة احترقت ومما يحفظ من شعره قوله من أبيات:

لا تعجبي من آسى العاني فأعظمه ... منذ العصور الخوالي حظ يعقوب

وله كثير غير هذا من بليغ الشعر

ثم نشأ من أنسابه إبراهيم الأول وهو ووالد المترجم حفيدا أخوين وكان عالماً درس على
الخوري عيسى الحامض والد الدكتور سليمان الخوري الحمصي واشتهر بطلاقة لسانه
وسعة معارفه في التاريخ والطب وكان واعظاً بليغاً توفي نحو سنة ١٨٧٠. عن نحو ستين
سنة. وله أولاد وحفدة في حمص. إلى غير ذلك مما يدل على أن العلم في هذه الأسرة
موروث والشعر متسلسل. وأعظم علمائهم المترجم.

٢ - نشأة المترجم

هو الشيخ إبراهيم بن عيسى بن يحيى (أو يوحنا) بن يعقوب بن سليمان بن فرح الغساني
الحوراني. ذهب والده عيسى إلى حلب نحو سنة ١٨٣٨ للتجار بالنسوجات وتدبرها إلى
أن ولد له فيها المترجم في مساء ١٤ أيلول سنة ١٨٤٤ (رومية) فعاد به أبوه وبأخيه
الأكبر إلى موطنه حمص والمترجم ابن سنة فترعرع فيها وتعلم مبادئ الحساب عند حائك
بارع بالقواعد الأربع ومبادئ الصرف والنحو في الأجرومية على يد القس أبيلا
والخوري بطرس الأرقش وبعض العلوم على الخوري عيسى الحامض أديب حمص في
عهده. وكان يجمع أترابه ويدرسهم ما درسه. وولع بالزجل والموايا من فنون الشعر

العامي فظلمها وهو في الحادية عشرة فتناقل المنشدون قدوده يتغنون بما منها في
البغدادى:

يا ساكن البان صبري من بعادك بان ... ييكى دماً كلنا غنى حمام البان
سرك كنته ولكن من دموعي بان ... والدمع فضاح أرباب الهوى في الصبا
يا روح عطفاً على العاني أسير الصبا ... مولاي شكواي أطف من نسيم الصبا
وإن كان بهز عطفك يا غصين البان

ونظم الشعر الموزون في سن الثانية عشرة من العمر كما سنرى في شعره
وسنة ١٨٦٠. نرحبهم إلى دمشق فتعرفوا فيها إلى الدكتور مخايل مشاققة فأعجب بذكاء
المرجم وأقع والده بإدخاله إلى مدرسة عبية الأميركية فدخلها سنة ١٨٦١ وبقي فيها
إلى سنة ١٨٦٤ فأحكم بعض العلوم وعاد إلى دمشق فأتبعها على بعض علمائها فدرس
الرياضيات والفلك والمنطق على يد الدكتور مخايل مشاققة والطبيعات والكيمياء على
الدكتور يوسف دمر ومبادئ الإنكليزية على السيدة كروفر. ولكنه كان يعنم نفسه
بالبحث والاستقراء والتدبير والمطالعة كما قال في مقالة أنشأها بعنوان أنا معني سنة
١٩١٣ وهو: وما زلت منذ ذلك الوقت أي زمن الصبوة أطلع وأتعنم إلى هذه الساعة
فاستفدت من تعليم نفسي أضعاف ما استفدته من معني ودرس في بعض المدارس
البسيطة في ضواحي دمشق. وحقق علم الجبر والهندسة والمنطق والجغرافية السساوية
وبعض أحوال السيارات ومبادئ علم الفلك وعلم قياس المثلاث والأنساب والفلسفة
الطبيعية والكيمياء والنبات والحيوان. واشتهر بسعة معارفه ودقة مداركه فاستقدمته
المدرسة الكلية للأميركان في بيروت سنة ١٨٧٠. أستاذاً فدرس فيها البلاغة والمنطق

والرياضيات وانفتح له باب جديد للتعلم في العلوم والتبحر في إتقانها وابتكار كثير من القواعد الرياضية التي كان يعملها على تلامذته العديدين من أطباء وعلماء وأدباء وهم معظمهم نوابغ السوريين في القطرين وبقي فيها نحو عشر سنوات وقفها للبحث والتأليف والتعريب والتصحيح من سنة ١٨٧١ - ١٨٨٨ م ودرس في مدرسة البنات وفي المدرسة البطركية بضع سنوات وكان يدرس في مدرسة اللاهوت الإنجيلية بعض العلوم إلى آخر حياته. واتصل بالعلامة الدكتور كارنيلوس فاندريك الأميركي المشهور ورصد معه الكواكب ثم صار يرصدها بمنظاره في بيته ويحقق شؤونها ويكتب فيها المقالات الإضافية. وتولى كتابة النشرة الأسبوعية منذ سنة ١٨٨٨. فدبجها بفوائد علمية وأدبية راقية. وكان مصححاً لمطبوعات المطبعة الأميركية ومعرباً لها مشتغلاً بالتأليف والكتابة منصرفاً إلى إتقان العلم وتوسيع المدارك. فكتب مئات من المقالات العلمية والأدبية. وابتكر قواعد وضوابط للعلوم مشهورة بين الأدباء. وألقى الخطب البليغة في الحفلات واجتماعات الأدبية مما أرقص أعطاف المنابر. وعلى الجملة فإنه ملأ الآداب العربية بمباحثه المفيدة. وزين المجالات والجرائد بنفثات أقلامه. وأغنى اللغة بأوضاعه ومعرباته وأساليبه العصرية. وكانت مزايا كتاباته ومنظوماته الجمع بين آراء المتقدمين والمتأخرين مع دقة نظر وصحة بحث.

وما زال يدأب في عمله إلى أن أقعده داء عقام فلازم الفراش ولم يكن مع اشتداد وطأته عليه يمتنع عن العمل فوافقه المنية بعد عام وذلك في ٢ شباط سنة ١٩١٦ في بيروت. فأقيمت له حفلة حزن مؤثرة رثاه فيها الدكتوران هسكنس وبلي والقسان هاردن وجسب والأستاذان قربان وكروفردي في الكنيسة أما على الضريح فتناوب تأبينه الأدباء

ضوابط وبها ومصور وحمية وباز. وأقيمت له حفلة تذكارية أبته فيها الأديان خوري وغريل. ورثاه كثير من الأدباء بمراث مؤثرة.

وكان طويل القامة ممتلئ الجبهة حنطي النون روماني الأنف أجش الصوت وخطه الشيب في آخر حياته ومن أخلاقه أنه كان حاد الطبع سريع الرضا كثير الجند على العمل لا يكاد يمل ولا يكل من البحث والمراجعة. وإذا نظم ترنم بالوزن سريع الخاطر حاضر الذهن دقيق البحث في الوضع والنغة والترتيب واسع الاطلاع يسير بالقارئ بين حزون المباحث وسهولها. ترجم وألف وصحح أكثر من ٢٥ كتاباً. فكان جبار علوم ومقدام أعمال متحلياً بأجمل الصفات الأدبية مع ترو وثبت وتحقيق وتدقيق محباً للأدب والأدباء غيوراً على النغة وأبنائها. فهو من أ - هم أركان النهضة العصرية بلا مرء.

٣ - شعره

كانت مزية شعر الحوراني علمية الأسلوب والترعة رشيقة التعبير متينة القوافي بليغة المعاني فصيحة الألفاظ دقيقة الخيال جامعة بين جزالة القدماء وأفكار المعاصرين. وله ارتجال بليغ ومعربات شعرية أجاد في نقلها مظهرًا بلاغتها الأصلية.؟ كيف لا وقد ورث الشاعرية عن أسلافه كنا مر ونظم في سن الثانية عشرة موزوناً وفي الحادية عشرة نظم الأزجال والموالينا وغيرها ولكنه كان قليل الحرص على حفظها فتشتت حتى قيل: أنها لو جمعت كلها لكانت خمسة أمثال شعر المتنبي أو تزيد. وقال بعضهم: أنه لا يلام إلا على إهماله جمع منظومه فبرئته للشيوخ ناصيف البازجي وغيره من المشاهير فقدت من بين أوراقه. وقد اعتنى الأستاذ داود أفندي قربان بجمع ديوانه مما وعده حافظته المشهورة ومما رآه عند أصحابه ونشر بعضها بعنوان (الدقيق الحوراني) في (مجلة المورد الصافي) البيروتية. وسعي

في حياة المترجم يجمع ديوانه فاطلع عليه قبل وفاته وأثبت ما صحت روايته منه. وكان يقول عن الأستاذ قربان: أنه روايته وذاكرته كما كان لدماء الشعراء رواة يحفظون منظوماتهم. وبعض أشعاره بدأ بنشرها في جريدة الرئيس التي تولى تحريرها. ثم في جريدة النشرة الأسبوعية وغيرها مما تناقله الأدباء فمتى أول أشعار صباه مورياً بأبواب حمص:

ويونانية في باب (هود) ... سبت بالحسن عادات العريب

فتحت لوصلها أبواب قلبي ... فلوصلها هجرها (باب الدريب)

ومنه وقد سمع من أبيه نظم جده وحته على تحديه فقال مضمناً ذلك:

يقول أبي: بني الشعر فخر ... لمن بمقاله الغاوين يهدي

فزوال نظمه وانشر علينا ... ذكي النشر من ورد ورن

فجدك كان ذا شعر نفيس = فقلت: انشر لنا نفحات جدي

فقال: إليك ما نقلت حداة ... به كانت مطي الشوق تجدي

ألا دع ما استطعت حديث نجد ... ففي ذاك الحديث قديم وجد

فجز تلك الربوع فإن فيها ... لقتلي غادة ربوات لحد

فقلت: طربت من ذا الجد جداً ... سأبذل في نظام الشعر جهدي

وأول ما أعلنه من شعره قواه وفيه صحة مذهبه الشعري:

هذب كلامك في نظامك ... قبل نقد العالم

فالشعر كالمرآة ير - سم فيه عقل الناظم

وقال من أبيات:

وعذاب أرباب الفضائل لذة ... وكفى الأفاضل أن غدوا أبرار

إن كان موتي في الفضيلة رفعة ... فليقبض ربي أن أموت مراراً

ومن ارتجالياته قوله:

جميع الناس في تيهٍ = عنى طرق الردى باتوا

فلولا الجهل ما تاهوا = ولولا التيه ما ماتوا

ومما كتب تحت رسمه:

رسم يشخصني لمقنة من به ... ولهي وروحي في حماء تقيم

يعقوب أشواق إليه مهجتي ... وأنا بدين الحب إبراهيم

ومن حكمياته قوله من أبيات:

لا يحد عنك عاقل متفقد ... شرح الحقائق للعبجاف مجاف

حماً يمثل المقال وفعله ... أبداً يقول الذئب بين خرافي

لا خير في عقل ولا علم ولا ... دين ولا مال بغير عفاف

وقوله في واعظ مرء:

خلقت شجاعاً ولكني ... جنت لبأساء لا تتقي

أخاف وكم خفت من واعظ ... كثير الصلاة قليل التقى

وقوله مما يدل على تواضعه وحكمته:

إني لا أعلم أنني لا أعلم ... وكفى بذاً علماً لمن يتفهم

إن الجهول الغر يحسب أنه ... أدرى من الشيخ الحكيم وأعلم

وقوله من مرثية:

يل نفس لست بمدرك كل الذي ... تبغينه فدعي عناءك واقصري

إن الذي في دفتر الأقدار لا ... يأتي على وفق الذي في دفتری
ولقد دخلت الأرض غير مخیر ... وسأترك الغبراء غير مخیر
وقوله ينصح التي ترغب في مال خطيها لا في كماله:
ما كل ذي مال شريف فاطلي ... من شرفته في الوری أخلاقه
كم من غني مجده أمواله ... كالزهر كل جماله أوراقه
وقوله في كأس الخمر:

في هذه الكأس الهلاك فلا تذق ... حلب العصير صديد أهل جهنم
عكست لظى لألائها من نارها ... وحيابه نفث الحباب الأرقم
وقوله في الباخرة من قصيدة:

حملك جارية اغيط كأنما ... برق سرى ليل النوى بهجوعي
دنت مني ومستني لهذا ... علقت بها كما حكم القضاء
وقوله في صدر خطاب:

لا ذنب لي قد قلت لنقوم اطلبوا ... غيري فلست من أهل الخطب
إن الخطابة لا تليق بغير من ... ألفاظه درر ومعناها ذهب
أو ناسج طرفاً سداها حكمة ... ووشيعها عنو ولحمتها أدب
قالوا أر العذر المليح ولا تر الب - خل القبيح ولا تفر من الطلب
فأجبت مضطراً فلا تتعجبوا ... من جرأني هذه فقد عرف السبب
وقال من قصيدة:

ما سواد الشعر عندي حسناً ... كبياض الشعر في بعض الرؤوس

إن تاج الشيب يا آل النهي ... عندنا أجمل من تاج العروس
 إن ذاك التاج نور ساطع ... من شعاع العقل في رأس الرئيس
 ومما يروى أنه كان سائراً مع صديقه المعلم سليم كساب رحمهما الله من بيروت إلى
 دمشق راكبين فنظم في طريقه قصيدته المشهورة:
 حمل النسيم لنا عير شذاكا ... ظبي الختام فرحت من أسراكا
 ومنها:

معنى توهمت السناء رحابه ... لما رأيت أهينه أملاكا
 وظننت سكان المضارب أنجماً ... لما رأيت خيامه أفلاكا
 إلى أن قال وقد قدحت سنايك خيلهما شراراً في فحمة النيل:
 ركب الظلام وسار يحترق ألفلا ... نحو الربوع وغادر الأدراكا
 وتسمنت عصف الرياح جواده ... تجري كدمع الصب يوم نواكا
 ترمي سنايكها الشرار كأنها ... وقدت أضالعها بنار هواكا
 وهي طويلة بليغة كلها من هذا الطراز الرائع .
 ومما ارتجله مشيراً إلى اسم أسرته في صغره:
 بدوية لاموا العنيد بحبها ... فأحبتهم والدمع أحمر قاني
 ما شأن فيها ها بدوية ... ترمي السهام بمهجة الحوراني
 وله من قصيدة طويلة في صباه:

من كل غرثي وشاح ما دنت ورننت ... إلا رمت بسهام الطرف مضناها
 تظل نيران إبراهيم موقدة ... منها كليم الحشى في طور سيناها

هيفاء تزنو في بحر السنا وأنا ... اختال في مثل ما يشكوه جفناه
بالوصل أنجل غادات الورى خلقت ... وعند سفك دم العشاق أسخاها
وله أخرى في صباه متفنناً:

في وجنتيه لكل شمس مطلع ... ومقلتيه لكل نفس مصرع
قمر لقه في كل صدغ عقرب ... من فرعه ومن البروج البرقع
إلى أن قال وأجاد بالتوجيه النحوي والعروضي:

خلفتوني مفرداً متمكناً ... في حيكم فلما بكم لا أجمع
وخفضتوني قد نصبت لنيلكم ... هدفاً فحتى م الجفا لا يرفع
ملتزم إلى الواشي بأشعار الثنا ... فصرفتوني والموانع أربع
إعجام صبري وازدياد تولمي ... وصفاتكم وجموع عدل تلذع
بين الحب وطيف ظمي كناسكم ... لم يبق للتنسيب عندي موضع
طال النوى بمديد وافر هجركم ... والقرب يبطئ والمدامع تسرع
ومن قديم فلكياته قوله من قصيدة بليغة في مدح السيد عبد القادر الجزائري:
نظمت من الشهب القلائد مثلنا ... حوت الأهله في مقام أساور
وتقنعت بغياهب وتبرقعت ... بكواكب وتمنطقت بنواظر
وقوله موجهاً بحرافة الحسوف وقد جلست عجوز ثقيلة بين عروسين في عرس فسكت
المغنون:

ترغوا أيها الشادون وابتدروا ... إلى المزاهر والنايات والوتر
وخلصوا البدر من حوت الحسوف أما ... رأيتم الأرض بين الشمس والقمر

وقوله من قصيدة:

إني رصدت كواكب العادات في ... أفلاكها من قبل نبت عذاري
وعرفت مشارقها ومغاربها وما ... في أمرها من غامض الأسرار
فهويت عن خبر وما يرضى الهوى ... في أهله أحداً من الأغوار
وعشقت أجمل عادة كلني بها ... كنف البخيل برنة الدينار
لا تعجبوا من صبوتي شيخاً فقي ... ثنج المشيب شبيرة من نار
وقوله من قصيدة في مدح خالد بنك والي بيروت:

مغاني النوى لنيرات مراصد ... مضاربها الأفلاك والصب راصد
فكم أمهي العشاق والشوق سائق ... مطايا السري والوجد للركب قائد
رقبنا بها الأقمار والدمع سائل ... بئيل به نهر الخجرة راكد

ومنها:

حكمت مهجتي المريح لما نوت كمنّا ... نوى عن مدار ألفرقدين عطارد
فبت وحادي النجم أعيت قنوصه ... وسرحان فجري للفرالة طارد
وقال من مراثية لأستاذه مخايل مشافقة المتوفى سنة ١٨٨٨ م:

لم يبق بعد غروبكم من مطلع ... في شرقنا لسوى نجوم الأدمع
إلى أن قال:

يا رمس ميخائيل لو درت العلا ... أمسيت محسود اغل الأرفع
أقليدس الصوري فيك وذو النهى ... اسحاق أهل الغرب فاعرف من تعي
بقراط والشيخ الرئيس وغيره ... من كل ذي زكن حصيف المعني

ما للرياضيات بعد مشاققة ... ما دامت الأفلاك غير تفجع
 ودوائر العرفان لم يعرف لها ... من مركز في القطر أو من موضع
 شقت عليك جيورها وصدوره ... وبغير شق قلوبها لم تنفع
 والصبر عز على الجميع كأنه ... تربيع دائرة ورسم مسيع
 وقال من قصيدة في قهنة الدكتور كارنيليوس فاندريك بيوبيله الخمسيني سنة ١٨٩٠:
 من لي بنظم كواكب الجوزاء ... عقداً فريدته الضحى لذكائي
 ليس الجمال إذا أحاط بمجدها ... إلا هباءً حول جبل ضياء
 شمس عنت كل الشسوس لوجهها ... وغدت به كضرائر الحسناء
 وأولوا الصباة حولها سيارة ... متحيرات من سنا وسناء
 وأسيرها أسد الهيام فلم يخف ... في الخافقين ملامة العواء

إلى أن قال:

ورصدتها ليل النوى في مرصد ... ما فيه غير مراقب الرقباء
 فكأنني والعين ترقب خدّها ... فاندريك يرقب نير العذراء
 فلك النهى قطب العلوم بعينها ... ومحيط دائرة الهدى للرائي
 دع ذكر هرمس وابن حيان وخذ ... عنه بيان صناعة الحكماء
 وانسخ به ألفلك القدم وخل ما ... أبداه بطليموس في الإخفاء
 وانظر مبادئ الصحيحة تلقها ... في غيرها كالدر في الحصاء
 واعدل عن الشيخ الرئيس فشيخنا ... شيخ الرئيس وعمدة الرؤساء
 لو كان بقراط الحكيم مريده ... في الطب أحياء ميت الأحياء

أو شام جالينوس برق سحابه ... ما مات ميتة سائم للشاء
 هذا الذي ما جس نبض أخي ضنا ... إلا تبدل سقمه بشفاء
 يشفي العليل بحكمة كشفت له ... سر الدواء ومضمرات الداء
 هذا الذي جعلت رياضياته ... أمد الدراري من خطي الغيداء
 فنو استبان الدرو من أشكاله ... أقنيدس استولى ذرى العلياء
 وقوله من أبيات ارتجناها في تأبين الياس صاخ البيروني المتوفى سنة ١٨٩٥ في شرح شبابه:
 يا معشر الصاحب هذه درة نثرت ... من عقدكم فاجتبت ترب البلا صدفا
 ذا غصن علم نمت أزهاره وزهت ... قبل اكتهال وزاد الحمل فانقصفت
 وقال من قصيدة يرثي بها صديقه الشيخ إبراهيم اليازجي أثابها الله:
 دفنوا حجاب النفس في جوف الثرى ... والنفس حنت باخل الأرفع
 قالوا الممات من الحياة وما دروا ... أن الحياة من الممات المفجع
 فالحب ينبت بع ما يلي أما ... لنحي بعد ذهابه من مرجع
 إن الخلود حقيقة أزلية ... نفى النفاة لها هبادة زعزع
 لم ينفها العنم الحديث وأثبتت ... في مجمع العنم القديم الخجع
 ومن معرباته البيغة قوله ناقلاً معنى لشكسبير الشاعر المشهور:
 شاب رأسي ولم أزل في مراسي ... واقتداري كأني في الشباب
 سر هذا كرمي الخلاعة دهري ... واعتزالي لمسكرات الشراب
 وقوله معرباً نظم إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني:
 الله أعلن ذاته في وحيه ... ترساً لدرء الشر عنا والعنا

ولدفع إبليس الرجيم قويل من ... يبغون عن سنن المهيمن دفعنا

(الله معنا) تاجنا فجميعنا ... نسئو به وهو المؤيد جمعنا

وعرب قول جون لو يصف ضوء البدر في المشرق على الغصون:

وبدر الأفق فوق الطود يهدي ... إلى الجنات ضوء المقلتين

أشعته على الأغصان تبدو ... كأسلاك غزلن من اللجين

وقال من كريستوفر كولمبوس مكتشف أميركا وقد طبع في كتابه الذي جمع له بلغات العالم كلها بخطوط أصحابها:

أكرستوفر ألفرد نصف الناس لا ... تنكر علي ولا تكن بالناسي

من كان نصف الأرض من مكشوفه ... أفلا أئنه بنصف الناس

ومن تواريخه الشعرية قوله موجهاً بالفلك بتاريخ زفاف ومن غرائب الاتفاق أن الشمس كانت في ذلك الوقت برج الأسد:

تقول الدراري بتاريخه ... لقد حلت الشمس برج الأسد

إلى غير ذلك مما جمع بين سلالة البحري ومعاني المعري وأمثالهما

مشاهد برلين

مرافق الحياة

يتوسط الشوارع الكبيرة في برلين رياض تسايها طولاً وتفتح فيها سبلاً للراجلين خاصة فيكون الشارع مفصلاً إلى رصيفين وجادتين بينهما ممر يكتنفه عمارتان من نبات تطرزه الرياحين بألوان مختلفة ولا يشاهد الإنسان في ديارها ولو في الروض بناءً بالياً أو جداراً